# الشمائل النبوية في الشعر العربي الباكستاني

حامد أشرف همداني *

فإن موضوع "الشمائل" موضوع عظيم و باب من أشرف أبواب العلم وأجلها، ألا وهو: شمائل نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، وخصاله المنيفة، وصفاته الشريفة، وأخلاقه الرفيعة، وآدابه الكريمة، ومعاملاته الطيبة الحسنة، صلوات الله وسلامه عليه.

فهو باب يحوي شمائل أفضل عباد الله وأحبهم إلى الله جل وعلا، خليل الله ومصطفاه ومجتباه، أكمل عباد الله عبادة وأزكاهم خلقاً، وأطيبهم نفساً، وأحسنهم معاملة، وأعظمهم معرفة بالله سبحانه وتعالى وتحقيقاً لعبوديته؛ اصطفاه الله جل وعلا ليكون سفيراً بينه وبين عباده، وواسطةً بينه وبين الناس في الدلالة على الخير والدعوة إلى الهدى، واختاره – على علم- من أفضل وأعرق البشرية نسباً، وخصه بأكمل صفات البشر من حيث الخَلق والخُلق، وخصه بأجمل الصفات في هيئته البهية، وطلعته الجميلة، ومُحيّاه المشرق، وصفاته العالية الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه، وخصه بأكمل الخلال وأجمل الأخلاق وأطيب الآداب، وجعله سبحانه وتعالى أسوة للعالمين وقدوة لعباد الله أجمعين، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١)؛ وهذه الآية كما قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله".(٢)

ومن المعلوم أن التأسّي به صلى الله عليه وسلم والاقتداء فرع عن العلم بشمائله وخصاله وخلاله؛ إذ لا يتأتى اقتداء به، ولا اتباع لنهجه، ولا لزوم لهديه إلا بمعرفة سيرته وشمائله وخصاله وخلاله العظيمة صلى الله عليه وسلم.

و "الشمائل" : المراد بها خصال الإنسان، وأوصافه، وخلاله، وأخلاقه، وآدابه ونحو ذلك، يقال : فلان حسن الشمائل، أي حسن الأخلاق، ويقال: كريم الشمائل، أي كريم الأخلاق، ولهذا سمى الإمام الترمذي رحمه الله وغيره من أهل العلم أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه وما يتعلق به بـ"الشمائل".(٣)

فعلم الشمائل: علم يختص بذات النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه وبعض ما اتصل به، وإن موضوع الشمائل النبوية هو: السمات والخصال والأخلاق التي عُرف بها رسولنا صلى الله عليه وسلم.

و منذ فجر التاريخ أحسّ الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه و بين أخيه الإنسان، و شعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس، ورأى الأقدار تضع و ترفع ، وتعطي و تمنع ، لذلك سعى إلى رضا من هم فوقه، و تجمل حيالهم بالقول، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد. فكانت أقواله تعبر عن المديح ، سواء أكان هذا المديح صادراً عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة ، لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى و الشجاعة والكرم والقوة والفهم والذكاء ، فهو يشترك مع الناس جميعاً في النظر إلى الزعيم والقائد و الوجيه والعالم والغني والسيد والأمير نظرة خاصة . ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء ، حين يعرض له القول أو يتصدّى الحديث والبيان شعراً ونثراً (٤).

فكذلك تعوّد العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرافهم من الكرم والشجاعة والحلم

---

* الأستاذ بقسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور ، باكستان.

والوفاء وحماية الجار، وكان لا يعد السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغني بنباهته و مناقبه(٥).

والمديح باعتباره غرضاً من أغراض الشعر ، شاع في نتاج كثير من الشعراء العرب ، منذ العصر الجاهلي حينما أعجب شعراء الجاهلية بالرجال المتفوقين من الملوك والوزراء والوجهاء والأغنياء من حيث الخلق والرأي والشجاعة والكرم والجود،فحرّكوا ألسنتهم بالثناء والإعجاب ، وامتدحوا المثل العليا التي رأوها عندهم.

ومن المعروف أن العرب كانوا يعيشون في أطراف الأرض على نظام عجيب ، و أسلوب غريب ، لا تجمعهم دولة، ولا يلمهم سلطان، ولا ينظمهم قانون واحد،كأنها تنتظر زعيماً يجمع شملها، وقائداً يفيد من شجاعتها، وإماماً يوحد بين آرائها. فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم في قريش، ودعا إلى وحدة العرب واتحادهم، و اجتماعهم تحت دين واحد ورأية واحدة، لينقذهم من فوضى تشلّ حياتهم و حروب تستفز قواهم، فهزّت دعوته القبائل ورؤساء ها، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها، فوقفت بين مصدقة ومكذبة، حتى إذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول صلى الله عليه وسلم من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع، ومن مقدرة في البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش هالها أمره ، و أدخلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه ، وبعضهم عنه، فوقف له شعراء يتصدون للهجاء عليه، كما وقف معه آخرون يجدون في الدفاع عنه و امتداحه.

وقد كان هذا المديح أوّل الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشمائله و رسالته وهو حيّ، فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه و تعداد صفاته والإشادة بالإسلام. و نحن ، إنما نعد هذا من المديح،لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كأنه موجود حيّ ، يناديه و يناجيه، فيسمعه و يلبيه(٦).

فحصيلة الكلام السالف ، أن المدح هو بيان الشمائل الطيبة والصفات الجميلة التي يكون الممدوح متصفاً به، سواء كان يصدر عن قرارة نفسه ، أو من أطراف لسانه.و دوافعه التقدير لشخصية الممدوح ، أو الإعجاب بفضائله وشمائله وخصاله، أو الطموح إلى نيل عطائه.

و المدائح النبوية من فنون الشعر ، وهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لاتصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، ولا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب إلى الله ، لنشر محاسن الدين، والثناء على شمائل الرسول. وكذلك أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يقال بعد الوفاة يسمّى رثاء ، ولكنه في الرسول صلى الله عليه وسلم يسمّى مدحاً، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء(٧).

ثم إن مدح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من المواضيع التي لا نهاية لها "فالموضوع واحد ولكن الحديث لا ينفد لأن شخصيته عليه السلام أعظم من أن تحيط بها دراسة أو يستغرق القول فيها وصف. وأيما دارس أو واصف يظن أن قد ظفر منها بكل شيء أو قال فيها كل ما يحمد أن يقال ولم يبق لغيره إلا الإعادة والتكرار فهو ولا شك مخدوع يخيل إليه بعض الشيء كله ، فلم يظفر في الحقيقة إلا بماقسم له ، ولم يقل إلا ما قدر له أن يقول، بقي لغيره ما قسم له من ظفر وما قدر له من قول وليس لهذا وذاك نفاد ولا انقطاع على مرّ الزمان"(٨).

ولذلك ظفر شعراء باكستان بحظ وافر من المديح النبوي بما فيه من بيان الشمائل النبوية فهو أكثر الأغراض الشعرية شيوعاً عند شعراء العربية في باكستان، فما من شاعر إلا وقد تطرق هذا الباب ونظم الشعر بهذا الصدد، ومن أشهر شعراء المديح النبوي في باكستان عبدالسلام سليم الهزاروي، ونقيب أحمد الديروي، وأصغر علي

الروحي، وفيوض الرحمن العثماني، ومولانا محمد إدريس الكاندهلوي، ومولانا ظفر أحمد عثماني، ومولانا عبدالمنان الدهلوي، والمفتي محمد شفيع، ومولانا محمد يوسف البنوري، والمفتي جميل أحمد التهانوي، والشيخ لطافت الرحمن السواتي، والدكتور محمد جميل قلندر، والدكتور ظهور أحمد أظهر، والحافظ محمد أفضل فقير، والقاضي محمد عبدالرحمن الكاملفوري، ومحمد عالم القريشي، ومحمد إظهار الحق سهيل، ورحمت علي خان سامي، ومولانا محمد عبدالله الدرخواستي، والأستاذ محمد حسين إقبال، والمفتي رضاء الحق المرداني، وعبدالعزيز خالد، ومحمد أمين نقوي، والسيد نصير الدين نصير، والميرزا آصف رسول.(٩)

أما المعاني التي يتناولها المديح النبوي عند شعراء العربية في باكستان فمن أهمها:

١. ذكر شمائل النبي صلى الله عليه وسلم و أوصافه

قد كان بيان أوصاف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وشمائله أحب المواضيع إلى المادحين في كل عصر، ويمكن أن نقسم أوصافه وشمائله عليه الصلاة والسلام إلى أقسام ثلاثة:

أ- الأوصاف الخَلقية

ب- الأوصاف الخُلقية

ج- الأوصاف النبوية

ولقد تناول شعراء باكستان شمائل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأقسام الثلاثة في شعرهم، فهذا الشيخ عبدالمنان الدهلوي يذكر أوصافه الخَلقية ويعدّد شمائله الطيبة:

جبينه مطلع الأنوار مشرقة ... فالشمس آفلة والبدر مختجل

ووجهه كطلوع الصبح منفلقاً ... فالأرض نائرة والقاع والقلل

وحسن مبسمه الوضاء مبتسماً ... كفتق زهر وعين زانها كحل

ونظرة شفت المرضى وغُرّته ... تروي الغليل ولا ماء ولا بلل

وجعده العطر المعطار نفحته ... كما النسيم بصبح هب يرتفل

وثغره الرائق البسّام منفلجاً ... ومن ثناياه نور وصفه غزل

سواد شعر بياض الخد يغبطه ... في حلة وثياب دونها الحلل

له جمال إذا مازاره أحد ... يقول سبحان ربي هل له بدل(١٠)

ويقول محمد يوسف البنوري في ذكر جماله وحسنه:

ألقى عليك شمائلاً من حسنه ... في عقد درّ يعجب الأنظارا

هو أدعج كحل العيون وأبلج ... أقنى أزج وأهدب أشفارا

هو لم يكن بمطهم ومكلثم ... حسن المحيّا في الأسالة دارا

طلق الجبين إذا تبسم ضاحكاً ... فاقت أسارير الجمال نضارا

فجبينه كالبدر يشرف دلجة ... قد فاق بدراً وجهه إذ نارا

وتشعشعت أنواره بجبينه ... متهلل سيماؤه أنوارا (١١)

ويقول أصغر علي الروحي في بيان أوصافه النبوية:

فتهـــديـنا صـــراطاً مســـتقيما وتأمـــرنا وتنهـــانا فصـــيحا
وتكشـــف عـــن خبيئـــات المعـــاني كنافحـة أبـت أن لا يفوحـا (١٢)

ويقول الشيخ ظفر أحمد العثماني في بيان أوصافه الخُلُقية:

أوتيـتَ علمـاً وحلمـاً زانـه خلـق حكمـة أنـت فيهـا حـائز السـبق
جـوداً يعـم الـورى نـيلاً ومرحمـة على الأعادي وعدلاً غيرذي رنق
أمانـــة صـــلة للـــرحم مكرمـــة فصل الخطاب و وحياً غير مختلق
بلاغـة أخجلـت مـن رامهـا ورمـت مبارزيها بذل الأبكم الخرق (١٣)

وقال عبدالمنان الدهلوي بهذا الصدد:

محمـد صـاحب الايات معجـزة حديثـه كزبيـب نطقـه عسـل
عفـوٌ وّسمـح وّإغضـاء وّمرحمـةٌ خصـاله وبحسـن الخلـق مشـتملُ
مـأوى الضّعاف مـلاذُ الخلـق قاطبـةً غـوث الأرامـل غيـث وابـل هطـل
بـرّ رّء وف بمـن خفّـت أواصـره كديمـة بذلـه يعطـي ويبتـذل
ولايميـل إلـى مـال وّلا سـبب ولا علـى ماسـوى الخـلّاق

وقال عبدالسلام سليم الهزاروي في بيان أوصافه النبوية:

وهـــوالنبي الهـــاشمي المصـــطفى مختـار إنـس في الزمـان وجـان
خـير الخلائـق كنـز أسـرار الملأ بـدرالكمال وسـيد الأكـوان
عـزّ المراتـب والمكـارم والعلـى وحبيـب رب منعم منّـان(١٥)

ويقول لطافت الرحمن السواتي بهذا الصدد:

الله أرســـله بالحـــق مؤتمنـــاً وصـادقاً أمينـاً كـل معتمـد
دعـا إلـى الله فالمستمسـكون بـه مستمسكون بحبل محكم السند
أوحـى إليـه إلـه العـرش جـاء بـه جبريل من عند ربّ بارئ حمد
فبلـــغ النـــاس أن الله ربهـــم وماسوى الله مابالسيل من زبد
محمـد سـيد الكـونين والثقلـين لطيـف قلـب نظيـف الـروح
قـدأوتي الخلـق الأسـنٰى ونورهـدى هـدى بـه النـاس نهـج الرشـد

٢- أسماء النبي صلى الله عليه وسلم

للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة، استخرجها العلماء, وشرحوا معانيها، وما تدل عليه، وقد ثبت في الصحيحين عن مُحمّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ عن أَبِيهِ قال, قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (لِي خمسة أَسْمَاءَ: أَنَا مُحمّدٌ، وَأَنا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الّذِي يَمْحُو الله بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الّذِي يُحْشَرُ النّاسُ عَلَى قَدَمَيّ، وَأَنَا

الْعَاقِبُ)(١٧).

وفي حديث آخر في صحيح مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُسَمّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً, فَقَالَ: (أَنَا مُحَمّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيّ التّوْبَةِ، وَنَبِيّ الرّحْمَةِ)(١٨).

وقد صنف العلماء في جمع أسماء نبي الإسلام مصنفات كثيرة، تزيد على الأربعة عشر مصنفًا، وهي: لابن دحية، والقرطبي، والرصاع، والسخاوي، والسيوطي، وابن فارس، والجزولي، ويوسف النبهاني، وغيرهم منها: "الرياض الأنيقة في شرح أسماء خيرالخليقة" للسيوطي.

ولذا نجد كثيراً من شعراء باكستان ينظم أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في مدائحهم، وقد نظم الشيخ محمد موسى خان قصيدة كاملة في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وسماها القصيدة الحسنى في أسماء النبي العظمى، ومن أبياته في تلك القصيدة الشهيرة:

محمد النقي القلب حيّا ... وميتاً فهو أزكى الطاهرينا

هو المدثّر المذكيّ خُلقاً ... هو المزمل المقري سنينا

رفيق منة الله حريص ... عليكم أيها المستسلمونا

فصيح دَهتم ورع عفيف ... وسيد ولد آدم أجمعينا

جواد صاحب الدرجات بر ... دليل الطالبين الحائرينا

عطوف سيد الثقلين راج ... ورحب الكف للمسترفدينا

نبيّ الراحة الدومى فطوبى ... لمن لبوا وتابوا مصلحينا

مقيل مَغنم عبد صبور ... وإن الله عند الصابرينا

جليل جهضم ذوالسيف ندب ... ضياء دامغ المستكلبينا

وكاف مكتف قطب همام ... ومكفي ولي الصالحينا

مهيمننا ومصلحنا شفيق ... مقيم السنة الغراء فينا

وخاتم أنبياء الله طرّا ... وخاتمهم فتبّ المنكرونا (١٩)

وأشار أمين علي نقوي إلى كثير من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأوصافه في قصيدته المدحية، ونورد فيمايلى بعض أبياته:

سلام الله رب العٰلمينا ... على محبوبنا نور المبينا

محمد وأحمدنا برب ... شفيع ناصر للخاطئينا

وداع قاسم مهد رسول ... وهاد وهوماحى الكافرينا

ومختار خليل أبطحي ... رشيد خاتم للمرسلينا

شهيد عادل فتاح عضل ... مطيع الحق مهدي الصادقينا

عزيز فاتح يسين طه ... رحيم حاشر في يوم دينا

قريشـــي حجـــازي نـــبي حكـــيم مـــؤمن نـــور المتينـــا
إمـــام عاقـــب حـــق خطيـــب ســـراج حـــافظ للعاشـــقينا
وعـــربيّ وأمـــيّ كلـــيم وكـــاف عـــالم ناه يقينـــا(٢٠)

٣- فضائل النبي صلى الله عليه وسلم

نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، بل أفضل الأولين والآخرين ، وسيد ولد آدم أجمعين. عن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ( أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)(٢١).

وروى الترمذي وحسنه ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ( أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ)(٢٢).وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ.(٢٣)

وقد ثبتت له صلى الله عليه وسلم فضائل فوق هذه الست : كالشفاعة العظمى ، وكونه أول من يفتح له باب الجنة ، وكونه أكثر الأنبياء تابعاً، وأن أمته ثلثا أهل الجنة ، وأنه صاحب لواء الحمد يوم القيامة ، وصاحب الحوض، وصاحب الوسيلة وهي درجة في الجنة لا تكون إلا له صلى الله عليه وسلم ، وهو إمام النبيين وخطيبهم يوم القيامة ، إلى غيرذلك.

قال الملا علي القاري : "فبعض الأحاديث ، وإن دل بمنطوقه على أنه - صلى الله عليه وسلم - مخصوص من عند الله، تعالى بفضائل معدودة، لكن لا يدل مفهومه على حصر فضائله فيها ، فإن فضائله غير منحصرة "(٢٤).

ولقد تناول شعراء العربية في باكستان فضائل النبي صلى الله عليه وسلم في شعرهم فهذا أصغر على الروحي يقول:

سمـــوت إلـــى المكـــارم والمعـــالي ســـبقت وقـــد تـــلاك الأنبيـــاء
وقـــد كنـــت اقتـــديت بهـــم جميعـــاً فتســـبقهم جميعـــاً لامـــراء(٢٥)

ويقول محمد إدريس الكاندهلوي بهذا الصدد:

ولم يـــدن رب العـــرش غـــير نبينـــا إلـــى العـــرش تفضـــيلاً لأفضـــل أفضـــل
وفارقـــه الـــروح الأمـــين بســـدرة وقـــال لـــه هـــذا نهايـــة منـــزلي
وودّعـــه جبريـــل إذ جـــاء رفـــرف تـــدلّى لـــه مثـــل المنصـــة مـــن عـــل
ومـــن بعـــده قـــد زج في النـــور زجـــة وأضـــحى إلـــى مـــولاه يســـمو ويعتلـــي
ومـــا ذاك إلا غايـــة لكرامـــة وهـــل بعـــد هـــذا مـــن مقـــام مفضـــل
وفي ذاك إيمـــاء لخـــتم النبـــوة وهـــذا لأن العـــرش آخـــر منـــزل
كقبـــل ارتـــداد الطـــرف إحضـــار لقـــدجاء منصوصـــاً بـــذكر منـــزل(٢٦)

ويقول ظفرأحمد العثماني:

محمد خاتم النباء سيدهم حامي الحقيقة مفتاح لمنغلق
أتقى الأنام وأزكاهم وأعلمهم بالله أحلمهم في الرتق والفتق
زاكي النجار جميل الوجه أنوره يمحو الظلام كبدر تمّ في الأفق(٢٧)

ويقول جميل أحمد التهانوي في بيان منزلته السامية ومكانته الراقية:

الأوّلون والأخرون علومهم في علمه مجموعة سحاء
إذ رحمة للعالمين ظهوره لم يحرم الثّقلان والأشياء
فالكلّ فيأمن به أن يخسفوا أويهلكوا ويكون الاستقصاء
تنشق أرض الحشر عمّن تحتها هو أوّل ممن لهم إحياء
إذ يحشر الناس الجميع بمحشر بيمينه للحمد فيه لواء
المرسلون جميعهم في مفزع تحت اللّواء له لهم إيواء
وله "الوسيلة والفضيلة" منحة ومقامه المحمود فيه ثواء
بيمين عرش الله حين حسابهم والناس في فرق لهم غوغاء (٢٨)

ويقول محمد موسى خان الروحاني يندّد بمن ادعى النبوة بعده:

وخاتم أنبياء الله طرا وخاتمهم فتبّ المنكرونا
فلا يرجو النبوة بعد هذا سوى من كان دجالاً لعينا
فلعنة ربنا أعداد رمل على الأتباع والمتنبّينا (٢٩)

٤- بيان معجزاته

معجزات النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة متعددة ، وقد جاوزت الألف ، كما صرح بذلك العلامة ابن القيم رحمه الله في "إغاثة اللهفان"(٣٠)، وهذه المعجزات منها ما حصل وانتهى، ومنها ما هو باق إلى أن يشاء الله تعالى ، وهو المعجزة العظمى، والآية الكبرى على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي القرآن العظيم ، الآية الباقية الدائمة التي لا يطرأ عليها التغيير والتبديل.

وأما المعجزات التي حصلت وانتهت فهي كثيرة ومن أشهرها:

معجزة الإسراء والمعراج، ومعجزة انشقاق القمر، وتكثير القليل من الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم حتى كان يأكل منه من معه من الجيش، وتبقى منه بقية، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم وتكثير الماء حتى يشرب منه جميع الجيش ويتوضؤون، و إخباره صلى الله عليه وسلم بالأمور الغيبية المستقبلة ثم تقع كما أخبر، و حنين الجذع إليه لما فارقه إلى المنبر، تسليم الحجر عليه وهو في مكة، وإبراء المرضى.

والمعجزات كما قلنا كثيرة وهذا طرف منها، وقد أَلّف العلماء في جمع معجزات النبي صلى الله عليه وسلم مؤلفات عديدة كدلائل النبوة للبيهقي، وأعلام النبوة للماوردي، وكتب العقيدة مملوءة بذكرها في مبحث الإيمان بالرسل. ولذا نجد شعراء العربية في باكستان يشيدون بذكر تلك المعجزات في قصائدهم في المديح النبوي.فهاهو عبدالسلام سليم يقول في بيان معجزات تسبيح الحجر بيده وحنين الجذع وانشقاق القمر:

قد سبّح الحجر القاسي براحته والجذع حنّ وبدر الأفق منقسم.(٣١)

ويقول ظفر أحمد العثماني بهذا الصدد:

زال الظلام ولاح النور في الأفق ... برق تألق في داج من الغسق

برق من الطور؟ أو بدر على جبل ... ببطن مكة منشق على فلق

بإصبع من يد كانت إشارتها ... في البدر أنكى من الصمصام في

ويقول محمد يوسف البنوري في ذكر الخوارق قبل مولده:

والله ينعته في نظم معجزة ... تتلى دوامًا فيا سبحان ما رصفا

له الخوارق تترى قبل مولده ... وطيب عنصره الأسمى علا وصفا(٣٣)

ويقول محمد أمين نقوى في ذكر بعض معجزاته:

جانب القمر رفعت الأصبعا ... كان مُنشقّاً من الحق اليقين

بين جزء يه جبالاً نظروا ... أنكروا صدق رسول المسلمين

رجعت الشمس على إمائه ... وهي كانت قد هوت كالآفلين

معجزات المصطفى قد أعجزت ... كل خلق بالحقيقة واليقين(٣٤)

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عروجه إلى السماء. وقد تناولها كثير من شعراء العربية في باكستان.

فهذا الشيخ أصغر على روحى يقول:

لقد عرج الإله بك اصطفاء ... إلى العرش استويت عليه روحا

فهذا الحقّ لا يخفى ولكن ... تعمّدت النفوس به جنوحا(٣٥)

وقد خص الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي قصيدة تناول فيها إسراء النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول:

ألا ليت شعري هل يقولن مقولي ... قصيداً بإسراء النبي المبجل

فسجان من أسرى بليل بعبده ... إلى المسجد الأقصى إلي عرشه العلي

تمطى براقاً خطوه مدطرفه ... كبرق وليس البرق منه بأعجل

وصادف فيها الأنبياء ينظرونه ... وقد جمعوا للشاهد المتوكل

فلاح كبدر في الكواكب كامل ... فيا لاحتفال للكواكب مخجل

وقال له الروح الأمين تقدمن ... وأمّ جميع الرسل يا خير مرسل

فأنت إمام الأنبياء وخطيبهم ... مصباحهم في كل ناد ومحفل(٣٦)

ويقول ظفر أحمد العثماني بهذا الصدد:

قد خصك الله بالإسراء ليلة إذ ... ترقى السموات من طبق إلى طبق

حتى بلغت من العلياء ذروتها ... وغاية لم تدع شأواً لمستبق(٣٧)

ويقول عبدالمنان الدهلوي في نفس الغرض:

في ليلة برقت بالنور ساطعة مسيرة ببراق سيره عجل
فاقت ليالي ميزاتٍ و مرتبة كليلة الوصل لاكلّ ولا ملل
كقاب قوسين أو أدنى دنا ودنا يجيب عمّا راها كيف ما سألوا (٣٨)

ويقول محمد أفضل فقيرفي صعوده إلى السماء:

حوى كل تعظيم العظام صعوده تعزّز جبريل الأمين بمردف
يرافقه صدقاً فألقى بسدرة إليه اعتذار البائس المتخلف(٣٩)

ويقول المفتي جميل أحمد التهانوي بهذا الصدد:

من أرض مكة نحو أقصى ثم منه إلى العلى في اليقظة الإسراء
للعالمِ الأعلى ومن سكن العلى هذا لأسرار الهدى إبداء(٤٠)

ويقول رضاء الحق في نفس الغرض:

دعاه إله العالمين بليلة فسار على الأفلاك وهو منيب
تفضل جمع الأنبياء بمقدس وأمّ إمام الأنبياء خطيب(٤١)

٥- شفاعته

إن سيّدنا محمداً عليه الصّلاة والسّلام هو خير البرية جميعاً، وهو خاتمُ الأنبياء والمرسَلين، وينجى الله الناس من العذاب بشفاعته يوم القيامَة، حيث إنّ لكل نبيّ من الأنبياء دعوة فتعجل كل نبي دعوته إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث اختبأها شفاعة لأمته يوم القيامة. فَعَن أبي هُرَيرَة رَضِي الله عَنه قَال: قال رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لِكُلّ نَبِيّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)(٤٢). وإنّ هذا الموقف من رسولِ الله عليه الصّلاة والسّلام يدل على عدّة أُمور من أبرزها: رحمته وحبّه لأمَّتِه، وتَقديمه لِمصلحة أمّته على مصلحته الشخصيّة فهو على يقين من إجابة هذا الدعاء لوعد الله له بذلك مسبقاً كما جاء في نصّ الحديث، ولكنَّه تَركهُ ليوم العرض على الخالق عزّ وجل حيث تكون الحاجة للإجابة أشدّ وأبْلغ منها في الحياة الدّنيا، وقد استأثر بالدعاء لأمّته بدل أن يدعو لنفسه في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه المال ولا البنون، قالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(٤٣).

وإن كتب الشمائل النبوية حافلة بسرد أحاديث شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتأثراً بذلك أشار أغلب الشعراء الباكستانيين بالعربية إلي شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة في شعرهم ومنهم عبدالسلام سليم حيث يقول:

فكيف أترك من أرجوه شفقته في هذه وغداً إذ احشرت أمم
وكيف أسخط من عمّت عنايتهم وكيف أعرض عمن عمّ

ويقول نقيب أحمدالديروي:

وأنت شفيع الناس هاد لجمعهموهدياً وسمتاً أنت أعلى وأنجب

يريد ويرجو قطرة من بحاركم نقيب حزين هائم وهو مذنب(٤٥)

ويقول فيوض الرحمن العثماني بهذا الصدد:

قد كنت في ليلتي أرعى كواكبها كأنها في الدّجى درّ على حلل
نوديت ياهائماً في الحب منجدلاً أكثر صلوة على من ساد في الرسل
محمدٍ هاشمي شافعٍ لهم حيث انتفى النصر والإقدام في زلل
والنّاس في حرجٍ والجمع في لحب والعينُ شاخصة والقلب في وجل(٤٦)

ويقول رضاء الحق المرداني:

هوالشافع الهادي طبيب قلوبنا مديح إله العالمين نسيب
شفيع الورى يوم القيامة محسن على العالمين وذا المقام عصيب(٤٧)

٦- الحنين إلى المدينة النبوية والشوق إلى زيارة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

الشوق إلى زيارة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في المنام و الحنين إلى المدينة المنورة من أهم الأغراض الشعرية في باب المدائح النبوية عبر العصور ، و تتجلى هذه المعاني عند شعراء باكستان أيضاً.

ويقول عبدالسلام سليم الهزاروي:

وإني لعمري دائماً متأسف على ارتحالي من رياض المدينة
إلهي ومنّاني ورَبي وموئلي ترىٰ اشتياقي دائماً نحو طيبة
أيا أسفاً ألفاً علىٰ فقد راحة وياحسرتا دهراً علىٰ ترك مكة
أجب دعوتي يا من تجيب دعائنا أمتني إلهي في ديار مدينة
هذا السليم أذل خلقك راحمي يرجو جنابك رحمةً في رحمة (٤٨)

ويقول عبدالمنان الدهلوي:

وللمدينة أنوار مّشاهدةٌ بنوره كصباحٍ ليلها الثمل
مناظر وقرار الهآئمين بها عجيبة ورأوها كلّما دخلوا
أبُولبا بة مكبول بسارية وتلك حنّانةٌ تشكو كمن عقلوا
وذاك منبره يرقى لخطبته وقبره ليت لي طولاً فأتّصل
شوقاً إليه وما أسرفت حين جرىٰ دمعي على قبره والعود محتمل
لقد رأيت تراباً مسّ حجرته لثمته أدباً والعين تكتحل(٤٩)

ويقول محمد شفيع رحمه الله:

واها لطيبة، مازالت منورة طابت مشارقها من طيب رياها
من للشفيع بأسحاربها سلفت وعيشة في حواليها تملاها(٥٠)

وبعد عرض هذه النماذج من الشعر العربي الباكستاني في الشمائل النبوية يظهر لنا أن شعراء باكستان يهتمون

باستخدام الألفاظ والعبارات ذات الصبغة العلمية اهتماماً بالغًا، لأن هؤلاء الشعراء كانوا بارعين في العلوم والفنون، فظهرت آثار ثقافتهم في أبياتهم، حيث كانوا في كثير من الأحيان يتكلفون في اختيار الألفاظ لنظم الشعر الذي قد يضعف صور أبياتهم و موسيقاها.

هؤلاء الشعراء يضعون في أذهانهم فكرة خاصة، أو سمة أدبية، أو ظاهرة بلاغية، ثم يذهبون إلى نظم الأبيات ويراعون فيها الظواهر المذكورة. ولهذا السبب نرى أسلوب هؤلاء الشعراء حافلاً بالظواهر الآتية:

١- الاقتباس والتلميح والتضمين.

أ- الاقتباس من الآيات القرآنية.

ب- التلميح إلى الأحاديث النبوية الشريفة.

ج- التضمين من الأشعار العربية

٢- الإشارات التاريخية

٣- استخدام الألوان البلاغية

أما الموسيقى الشعرية أو الأوزان فنرى أن معظم الأعمال الشعرية عند شعراء باكستان كانت في الأوزان الكثيرة التفاعيل. أما الأوزان القصيرة فلم نجد لها حظاً وافراً في إنتاج هؤلاء الشعراء. فهنا توافق بينهم و بين شعراء العرب القدماء في عدم استخدام الأوزان القصيرة في معظم إنتاجهم الشعري.

أما بناء القصيدة وشكلها فقد تأثر شعراء باكستان ببعض الأساليب من شعراء العرب القدماء بالنسبة لبنية القصيدة وشكلها، فيستهلون قصائدهم بالوقوف على الأطلال أو البكاء لذكريات الحبيبة، وقد جاء معظم إنتاج شعراء باكستان على هذا النمط. وقد اطلعنا على بعض القصائد العربية لشعراء باكستان، والتي نسجت على منوال شعراء العصر العباسي، بدون أي تمهيد ، يهدفون مباشرة إلى المقصود الأصلي منذ بداية القصيدة كما قال رحمت علي خان سامي في مطلع قصيدته المدحية:

لقد منّ الإله على الأنام ... فأرسل هادياً ذا الاحترام

نبياً خير خلق الله طرا ... رسولاً خاتم الرسل العظام

محمد الذي ترجى شفاعته ... لأمته غداً يوم القيام

هدى للعلمين بنور وجهه ... وبالآيات والحجج الكرام

أضاء الأرض بالنور الإلهي ... وأرشدهم إلى دار السلام

لأن الله أرسله سراجا ... منيراً ماحياً دهم الظلام

إليهم بالكتاب المستنير ... بنور الحق كالبدر التمام(٥١)

وقد سلك هذا المسلك الشيخ محمد إظهار الحق سهيل حيث يقول:

أرسلت فينا من رسول هاشمي ... خير البرية كلها بكمال

والله أين البدر من وجه النبي ... في قرة ونضارة وجمال

عرق كريحان الفراديس العلى ... والله أين المسك مسك غزال

صلوا عليه وسلموا تسليما ... إن الصلوة عليه عين جمال

صـلي الإلـه علـى النـبي وآلـه وعلـى خديجـة أمّنـا متـوال
وعلى حسين سبطه وعلى الحسن سـادات أهـل الخلـد خـير عيـال
وعلـى رفيـق الغـار خـير صـحابة وعلـى رفيـق القـبر بعـد وصـال
عمـر بـن الخطـاب أمـير المـؤمنين صـهر الرسـول وصـاحب الإجـلال
وعلـى الخليفـة صـاحب النـورين وعلـى أخيـه البطـل سـيد آل
وعلـى الصـحابة كلهـم والتـابعين وعلـى بـني الأعمـام والأخـوال
صـلى الإلـه علـى النـبي المجتبـى وعلى من اتبع الهدى بخصال(٥٢)

## الهوامش

(١) الأحزاب: ٢١

(٢) ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ج٦، ص ٣٥٠

(٣) عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر: شرح شمائل النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، بدون سنة النشر ومكانه، ص ٧-٨

(٤) سامي الدهان: المديح من فنون الأدب العربي، دار المعارف القاهرة (بدون التاريخ) ص٧

(٥) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف مصر، ١٩٦٣م، ص ٢١٥.

(٦) سامي الدهان: المديح من فنون الأدب العربي ، ص٧٠- ٧١

(٧) زكي مبارك: المدائح النبوية، مطبع الشعب القاهرة (بدون التاريخ) ص١٤

(٨) ناصف، على النجدي: الدين والأخلاق في شعر شوقي، مطبعة كوستاتسوماس، ١٩٤٨م، ص١١٦

(٩) للاطلاع على قصائدهم في المديح النبوي يرجى الرجوع الى الشعر العربي في باكستان (رسالة الدكتوراة للباحث نفسه، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان ٢٠٠٧م) وشعراء العربية في باكستان، للباحث نفسه، جامعة بنجاب، قسم التأليف والترجمة، ٢٠١١م.

(١٠) مجلة الرشيد: (العدد الخاص بالمديح النبوى)، كراتشي، باكستان، ص ٢٤٩- ٢٥٠

(١١) مختار، محمد حبيب الله. القصائد البنورية. كراتشي: المكتبة البنورية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٧٨

(١٢) الروحي: أصغر علي. الديوان. تحقيق: الدكتور رانا ذوالفقار علي، تقديم: الدكتور ظهور أحمد أظهر، لاهور: مجلة المجمع العربي الباكستاني، المجلد الأول، العدد الثالث، ص ٥٧

(١٣) مجلة الرشيد : ص ٢٣٣ - ٢٣٤

(١٤) مجلة أنوار مدينة ، المجلد ١، ا لعدد١ (ربيع الثاني ١٤١٣هـ / أكتوبر ١٩٩٢م) ص ٥٥

(١٥) فيوض الرحمن ، الدكتور: معاصرين إقبال. لاهور: نيشنل بك سروس، (بدون التاريخ)، ص ٦٣٩، و عبدالله، محمود محمد: اللغة العربية في باكستان دراسة وتاريخاً . الطبعة الأولى. باكستان: وزارة التعليم الفيدرالية، شعبان ١٤٠٤ھ /مايو١٩٨٤م، ص٤٥٤

(١٦) مجلة بينات، المجلد ٣٥، العدد ٥ (ذوالقعدة ١٣٩٩ھ / أكتوبر ١٩٧٩م) ص ٥٦-٥٧

(١٧) البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، باب ماجاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم ٣٥٣٢

(١٨) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم،تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، برقم ٢٣٥٥

(١٩) مجلة الرشيد، ص ص ٣٦٠-٣٦١

(٢٠) نقوي، محمد أمين علي: قصيده أمينيه. الطبعة الأولى.فيصل آباد: جشتي كتب خانه، رجب ١٣٨٤ھ، ص ٢٤-٢٧

(٢١) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، برقم٢٢٧٨

(٢٢) الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي، برقم ٣٦١٥

(٢٣) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، برقم٥٢٣

(٢٤) القاري، علي بن سلطان: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ھ/ ٢٠٠٢م، ج٩، ص ٣٦٧٦

(٢٥) روحي، أصغر علي: الديوان : ص ٤٥

(٢٦) مجلة الرشيد : ص ٢٥٥

(٢٧) مجلة الرشيد : ص ٢٣٢

(٢٨) مجلة الرشيد : ١٣٧- ١٣٨

(٢٩) مجلة الرشيد : ٣٦١

(٣٠) ابن قيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف الرياض، ج ٢ ص٦٩١

(٣١) فيوض الرحمن، الدكتور : معاصرين إقبال، ص ٦٦٤

(٣٢) مجلة الرشيد: (العدد الخاص بالمديح النبوى) ص ٢٣٢

(٣٣) مختار، محمد حبيب الله: القصائد البنورية، ص ٦٥

(٣٤) النقوى، محمد أمين علي: قصيدة أمينية، ص ٣٥

(٣٥) الروحى، أصغر علي، الديوان،ص ٥٧

(٣٦) مجلة الرشيد: ص ٢٥٣

(٣٧) مجلة الرشيد: ص ٢٣٢

(٣٨) مجلة الرشيد:ص ٢٥١

(٣٩) مجلة الرشيد : ص ٢٢٧، و فقير، محمد أفضل: شآبيب الرحمة. تقديم : د.ظهور أحمد أظهر. لاهور: مكتبة كارواں، (بدون التاريخ)، ص ٥٩

(٤٠) مجلة الرشيد : ص ١٣٧

(٤١) المرداني، رضاء الحق المفتي. قرار دل. ترتيب وتعليق: مولانا عبدالباري. كراتشي:زمزم ببلشرز،(بدون التاريخ) ص ١٧١

(٤٢) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، برقم ١٩٩

(٤٣) الشُّعراء: ٨٨-٨٩

(٤٤) مجلة الرشيد: ص ٢٩٨

(٤٥) فيوض الرحمن ، الدكتور : مشاهير علماء ديوبند. لاهور: فرنتير ببلشرز، (بدون التاريخ)، ص ٢٧٣

(٤٦) فيوض الرحمن ، الدكتور : مشاهير علماء ديوبند، ص ٣٧٦

(٤٧) المردانى، رضاء الحق المفتى، قرار دل ، ص ١٧١

(٤٨) فيوض الرحمن ، الدكتور : معاصرين إقبال ، ص ٦٦٥

(٤٩) مجلة أنوار مدينة ، المجلد ١ ، العدد ٩، (ذوالحجة ١٣٩٠هـ / فبرائر ١٩٧١م ) ص ٢١

(٥٠) محمد تقي العثماني فى آخر كتاب "الإزدياد السني على اليانع الجني للمفتي محمد شفيع" كراتشي: إدارة المعارف، ص ٨٣، وشفيع محمد المفتى، نفحات في فضل اللغة العربية، كراتشي: إدارة المعارف، رجب ١٣٩٣هـ، ص ٣٣

(٥١) مجلة الرشيد، ص ٢٨٨- ٢٨٥.

يقول الدكتور محمود محمد عبدالله بعد سرد بعض أبياته: "من أول وهلة يعلم القارئ أن هذا الشعر ارتجالي وخال من الأحاسيس والعواطف الشعرية. ولايحتاج إلى تفسير حيث إن كلماته ليس فيها أدنى غموض وهي واضحة كالشمس". انظر: اللغة العربية في باكستان، ص٤٤٠

(٥٢) مجلة الرشيد، ص ٢٥٦

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆